



تشرينا أتشيبى.. الأب المؤسس للرواية الأفريقية

حسن العاصي 2023-06-03 -

يعتبر العديد من النقاد "تشرينا أتشيبى" Achebe Chinua أشهر روائي أفريقي، وأكثر الكتاب الأفريقيين نفوذاً في جيله، والأب المؤسس للرواية الأفريقية. قدّمت روايته الأولى "الأشياء تتداعى" التي نشرها في عام 1958 تعارضاً مع الروايات الأوروبية عن الأفارقة، وشكلت تحدياً أيضاً للافتراضات التقليدية حول شكل ووظيفة الرواية. لقد أنشأ ابتكاره لمزيج هجين يجمع بين الأنماط الشفوية والأدبية، وإعادة تشكيله للغة الإنجليزية لنقل أصوات ومفاهيم "الإيغبو" Igbo نموذجاً وإلهاماً للروائيين الآخرين في جميع أنحاء القارة الأفريقية.

برعت كتاباته بتقديم القراء في جميع أنحاء العالم إلى الاستخدامات الإبداعية للغة والشكل، بالإضافة إلى الروايات الواقعية الداخلية للحياة والتاريخ الأفريقي الحديث. ليس فقط من خلال مساهماته الأدبية، ولكن أيضاً من خلال مناصرته للأهداف الجريئة لنيجيريا وأفريقيا، ساعد أتشيبى في إعادة تشكيل تصوّر التاريخ الأفريقي والثقافة والمكانة الأفريقية في العالم.

تُقدم الروايات الخمس والقصص القصيرة التي نشرها بين عامي 1958 و1987 سرداً لتاريخ نيجيريا المضطرب منذ بداية الحكم الاستعماري البريطاني. وأنشأت مجموعة من الشخصيات النابضة بالحياة التي تسعى بطرق مختلفة للسيطرة على تاريخها. وبصفته محرراً مؤسساً لسلسلة كتاب "هاينمان الأفريقيين المؤثرين" influential Heinemann African writers جعلت نص مئة من أكثر نشر على أشرف متاحة في جميع أنحاء العالم بطبعات ميسورة التكلفة.

طفولة المدرسة التبشيرية

ولد "ألبرت تشينالوموغ أتشيبى" Albert born Achebe Chinua بتاريخ 16 نوفمبر 1930 في قرية "أوجيدي" Ogidi بشرق نيجيريا، وبعد حوالي 40 عاماً من وصول المبشرين لأول مرة إلى المنطقة. أطلق عليه والديه الذين تحولوا إلى المسيحية اسم ألبرت تشينالوموغو. في وقت لاحق وبمقال عن سيرته الذاتية بعنوان الملكة فيكتوريا ملكة إنجلترا، أخبر كيف أنه مثل الملكة فيكتوريا فقد ألبرت، لأن القومية المتنامية في نيجيريا لم تغب عن أتشيبى، فقام في الجامعة بإسقاط اسمه الإنجليزي "ألبرت" لصالح الاسم الإيغبوي "تشرينا"

كتب أن نشأته كمسيحي سمحت له بمراقبة عالمه بشكل أكثر وضوحاً. أصبحت المسافة الطفيفة عن كل ثقافة ليست انفصلاً، بل تجمعاً مثل الخطوة الخلفية الضرورية التي قد يتخذها المشاهد الحكيم من أجل رؤية



اللوحه القماشية بشكل ثابت وكامل.

ومع ذلك، مُنح الأطفال في المدرسة التبشيرية المحلية من التحدث بلغة الإيغبو، وتم تشجيعهم على نبذ جميع التقاليد التي قد تكون مرتبطة بأسلوب حياة "وثني". ومع ذلك، فقد استوعب أتشيبى الحكايات الشعبية التي روتها له والدته وأخته الكبرى، وهي القصص التي وصفها بأنها "ذات جودة عميقة للسماء والغابات والأنهار".

عندما كان في الرابعة عشرة من عمره، تم إرسال أتشيبى إلى كلية الحكومة الاستعمارية المرموقة في أومواهايا، حيث كان من بين زملائه في المدرسة الشاعر "كريستوفر أوكيجبو" Okigbo Christopher صديقه المقرب. في عام 1948 حصل على منحة دراسية لدراسة الطب فيما أصبح يعرف بجامعة "إبادان" University of Ibadan في علمية درجة إلى وانتقل، له تروق ما أكثر هي الكتابة أن أدرك الأول عامه بعد، ذلك ومع of Ibadan الإنجليزي والدراسات الدينية والتاريخ.

على الرغم من أن مناهج اللغة الإنجليزية اتبعت عن كتب المناهج البريطانية، فقد قدم المعلمون أيضاً أعمالاً اعتبروها ذات صلة بطلابهم النيجيريين، مثل روايات "جويس كاري" Cary Joyce الأفريقية وقلب الظلام لـ "جوزيف كونراد" Conrad Joseph لكن مثل هذه الأعمال كانت تتعارض مع العقلية المتغيرة التي أحدثتها الحركات المناهضة للاستعمار في غرب إفريقيا في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

كاتب يروي قصة الأفارقة

كان أتشيبى من بين العديد من نجوم الأدب المستقبليين، بما في ذلك "وول سوينكا" Soyinka Wole الذي ساهم بين عامي 1948 و1952 بقصص ومقالات في مجلات طلابية ذات توجه قومي. حتى في هذه النصوص المبكرة يمكن للمرء أن يميز الصفات المميزة لأتشيبي: نظرة مسلية بشكل هادئ للنخبة المتعلمة، بنية متوازنة بعناية من التناقضات، متعة في محاكاة أنماط الخطاب المختلفة، الاهتمام بريف نيجيريا والتفاعل المضطرب بين الثقافات الغربية والإيغبو، والإصرار على ما رآه قيمة الإيغبو الحاسمة للتسامح. في إحدى هذه القصص يظهر المثل المفضل له لأول مرة: "دع الصقر يجلس ودع النسر يجلس".

بحلول الوقت الذي تخرج فيه في عام 1952 قرر أتشيبي أن يكون كاتباً يروي قصة الأفارقة والمواجهة الاستعمارية من وجهة نظر أفريقية. كان أحد دوافعه هو رواية كاري النيجيرية Nigeria Cary "مستر جونسون" Johnson Mister والتي على الرغم من الإشادة بها من قبل النقاد الإنجليز بدت له "صورة أكثر سطحية لنيجيريا وللشخصية النيجيرية". كان يعتقد: "إذا كان هذا مشهوراً، فيجب على أحد أن يحاول النظر إليه من الداخل".



ما تم التخطيط له في الأصل كرواية طويلة واحدة بدءاً من استعمار شرق نيجيريا وانتهاءً قبل الاستقلال مباشرة، تحول إلى روايتين أقصر، الأولى رواية "أشياء تتداعى" Apart Fall Things (تدور أحداثها في أواخر القرن التاسع عشر) ورواية "لم يعد من السهولة" Ease at Longer No (تدور أحداثها في العقد السابق لاستقلال نيجيريا).

بينما تتناول الرواية الثانية حبكة السيد جونسون وتعيد سردها - قصة كاتب نيجيري شاب يأخذ رشوة وتحاكمه الإدارة الاستعمارية وحكمت عليه - تسعى الرواية الأولى بنجاح باهر إلى استحضار الثقافة والمجتمع السيد.

تعيد رواية الأشياء تتداعى إنشاء ثقافة شفوية ووعي مشبع بأسلوب الحياة الزراعي الودي والمتوحش، على حد تعبير أتشيببي "إن الشعوب الأفريقية لم تسمع عن الحضارة لأول مرة من الأوروبيين". في الوقت نفسه، سعى إلى تجنب تصوير أفريقيا ما قبل الاستعمار على أنها رعوية، رافضاً استحضار الحنين إلى الشاعر والسياسي السنغالي "ليوبولد سنغور" Senghor Léopold ومدرسة الكتابة الفرانكوفونية.

يظهر بطل الرواية "أوكونكو" Okonkwo كشخصية بطولية، ولكن جامدة، يخشى خوفه من الظهور ضعيفاً أن يتصرف بقسوة تجاه زوجته وأطفاله، وأن يشارك في التضحية بشاب رهينة من قرية أخرى. تمت مقارنة توصيفها وعالمها الريفي المغلق مع عمدة "كاستيربريدج" Casterbridge من قبل الروائي الانجليزي "توماس هاردي" Hardy Thomas الذي أعجب به أتشيببي. بيعت "أشياء تتداعى" ملايين النسخ وترجمت إلى أكثر من 50 لغة.

رواية لم يعد من السهولة Ease at Longer No التي تدور أحداثها في نيجيريا في الخمسينيات من القرن الماضي ونُشرت عام 1960 وتتناول قصة حفيد أوكونكو، وهو موظف حكومي نيجيري شاب مثالي يعود إلى وطنه بعد الدراسة في إنجلترا، ويجد راتبه غير كافٍ لنمط حياته المتوقع، فبدأ يتقاضى الرشوة.

الجمهورية الانفصالية

أولى رحلاته إلى الخارج كانت بصفته رئيس قسم المحادثات في خدمة البث النيجيري (NBS) حيث تم إرساله في عام 1956 في دورة تدريبية قصيرة في هيئة الإذاعة البريطانية بلندن. بالعودة إلى نيجيريا قام بتحرير وإنتاج برامج مناقشة وقصص قصيرة للمكتب الوطني للإحصاء في "إينوجو" Enugu بشرق نيجيريا، وتعلم الكثير عن كيفية عمل الحوارات الجيدة. التقى هناك بـ "كريستي تشينوي أوكولي" Chinwe Christie أطفال أربعة وأنجبا 1961 عام تزوجا. Ibadan "إبادان" جامعة من ورائعة جميلة طالبة وهي Okoli



أثناء إعداده لمقال عن رد فعل النيجيريين على الحكم الاستعماري المبكر، حقق أتشيببي في قصة كاهن من الإيغبو مسجون لرفضه التعاون مع البريطانيين. مفتوناً بالحكاية وشخصية الكاهن الفخورة جعل من هذه القضية محور روايته الثالثة "سهم الله" God of Arrow التي صدرت عام 1964. يعتبر بعض النقاد أن هذا العمل أعظم إنجازات أتشيببي بنيته المعقدة وتوصيفه، واستجوابه للفجوات بين الرغبة الذاتية والقوى الخارجية في صنع التاريخ.

تم التركيز بصورة أكثر على المخاوف التي وردت في رواية سهم الله بشكل أكثر وضوحاً في روايته الساخرة الرابعة "رجل الشعب" People the of Man A التي صدرت عام 1988. وفي الرواية يفضح الفساد وعدم مسؤولية السياسيين وناخبهم، وتنتهي بانقلاب عسكري - كما حدث بالفعل في نيجيريا بعد الاستقلال في عام 1966 وهو الانقلاب الذي أدى إلى محاولة انفصال "بيافرا" Biafra ونشوء حرب أهلية راح ضحيتها أكثر من مليون شخص.

وبيافرا هي رسمياً جمهورية كانت دولة انفصالية معترف بها جزئياً في غرب إفريقيا، وأعلنت الاستقلال عن نيجيريا. استر قيامها من عام 1967 حتى عام 1970. وتألقت أراضيها من المنطقة الشرقية لنيجيريا التي تقطنها أغلبية "إيغبو" Igbo.

عندما بدأت مذبحة "إغبوس" Igbos في الشمال بعد الانقلاب، كان أتشيببي يعمل في هيئة الإذاعة النيجيرية في لاغوس Lagos وحذر أتشيببي من أنه قد يكون في خطر (كان ابن عمه أحد القادة العسكريين الذين اغتيلوا)، فأخذ عائلته إلى شرق نيجيريا. أصبح مدافعاً قوياً عن استقلال بيافرا، وسافر حول العالم للحصول على الدعم.

في رأيه، لم تكن بيافرا منطقة يمكن أن تضمن بقاء شعوب الإيغبو فحسب، بل كانت أيضاً نموذجاً مثالياً. وفي حديثه عام 1968 أعلن: "تدافع بيافرا عن الاستقلال الحقيقي في إفريقيا، ونهاية 400 عام من الخزي والإذلال التي عاينها في ارتباطنا بأوروبا. أعتقد أن قضيتنا صائبة وعادلة. وهذا ما يجب أن يدور الأدب حوله اليوم - الأسباب الصحيحة والعادلة".

على الرغم من أن الحرب انتهت بهزيمة الانفصاليين في قضية بيافرا، إلا أن أتشيببي كان مصمماً على أن وجود شعب الإيغبو ووجهات نظره يجب أن تستمر داخل الأمة النيجيرية.

نوع جديد من الأدب



استندت مجموعته من القصائد "احذر أخي الروح" Brother Soul Beware الصادرة عام 1971، ومجلد القصص القصيرة "فتيات في الحرب وقصص أخرى" Stories Other and War at Girls في 1972 على تجارب الحرب.

أصبح زميلاً باحثاً أول في جامعة نيجيرية، وهي "جامعة نيجيريا نسوكا" Nsukka Nigeria of University وفي عام 1971 أسس هو ومجموعة من الأكاديميين النيجيريين مجلة Okike وهي مجلة مهمة للكتابة الإبداعية الأفريقية والنقاش النقدي. كما كتب عدة كتب للأطفال.

في عام 1972 قبل أتشيببي الأستاذية الزائرة في جامعة "ماساتشوستس أمهيرست" of University Okike. مجلة تحرير في واستمر الأفريقي الأدب بتدريس قام حيث Massachusetts Amherst

على الرغم من إدانته الشديدة للعنصرية والخطرة الإمبريالية، إلا أن سخرية أتشيببي اللطيفة، والضحك الجاهز، وبهجته في الحكايات عن تصرفات الأطفال الغربية، هي ما يتذكره زملائه في جامعة أمهيرست.

ولم يتراجع عن الجدل في المقالات والمحاضرات والمقابلات، وأعلن الحاجة إلى الكتابة الملتزمة في السياق الأفريقي. كما وسخر من الكتاب والنقاد الذين وجد مواقفهم تجاه الأفارقة متعالية أو عنصرية.

شجب رواية قلب الظلام في محاضرة بجامعة ماساتشوستس، تسببت في انسحاب الكثيرين من الجمهور احتجاجاً.

عاد أتشيببي إلى نيجيريا في عام 1976 ليعمل أستاذاً للأدب في جامعة نيجيريا حيث واصل التدريس، وأصبح رئيساً لاتحاد الكتاب النيجيريين وقام بتحرير مجلة Igbo ndi Uwa وتعني "عالم شعب الإيغبو" وهي مجلة الحياة والثقافة لشعب الإيغبو. كما انتُخب نائباً للرئيس الوطني لحزب الفداء الشعبي ونشر كتيباً سياسياً بعنوان "مشكلة نيجيريا" Nigeria With Trouble The في عام 1983.

لم يخلق أتشيببي نوعاً جديداً من الروايات فحسب، بل كان أيضاً غير راغب في تكرار نفس الصيغة في رواياته، التي أقامت كل منها حواراً مع سابقتها تقنياً ورسمياً، وكذلك فيما يتعلق بالشخصية والأوساط الاجتماعية.

وبلغت هذه العملية ذروتها في روايته الخامسة Savannah the of Anthills التي صدرت عام 1987، والتي علّق فيها على أشكال وموضوعات أعماله الخاصة بالكتاب الأفارقة الآخرين.



تشدد الرواية على أنه لا توجد قصة واحدة للأمة، بل تتعدد الروايات، تنسج الاستمرارية بين الأشكال والتقاليد الثقافية في الماضي والحاضر، والإيغوب والإنجليزية. تم تلخيص فلسفة وبنية وجمالية Anthills of Savannah حقيقة" مقالته من الأخيرة الجمل وفي. أتشيبى روايات جميع في ملاحظته يمكن هذا الواقع وفي Savannah الخيال "Fiction of Truth The يقول إن "الأدب الخيالي لا يستعبد إنه يحزر عقل الإنسان. إنه الحقيقة. ليس مثل شرائع العقيدة أو اللاعقلانية في التحيز والخرافات. إنه يبدأ كمغامرة في اكتشاف الذات وينتهي بالحكمة والضمير الإنساني".

الكاتب الأفريقي العظيم

أدى حادث سيارة وقع في عام 1990 إلى إصابة أتشيبى بالشلل. عرضت عليه كلية بارد College Bard في نيويورك إمكانية التدريس هناك، وقدمت التسهيلات التي يحتاجها. وباستخدام كرسي متحرك واصل السفر وإلقاء المحاضرات في الولايات المتحدة وأحياناً في الخارج. نُشرت محادثاته في هارفارد عام 1998 تحت عنوان "الوطن والمنفى" Exile and Home.

نُشرت محاضراته الأخيرة ومقالاته عن سيرته الذاتية في عام 2009 "تعليم طفل محمي من بريطانيا" The Education of a British-Protected Child

انتقل إلى مدينة "بروفيدنس" Providence المدينة المكتظة في ولاية "رود آيلاند" Rhode Island في عام 2009 بعد تعيينه أستاذاً لدراسات "أفريكانا" studies Africana في جامعة "براون" Brown University.

نشر في عام 2012 كتاب "كان هناك بلد: تاريخ شخصي لبيافرا" Personal A: Country a Was There روايته أثارت. شبابه أيام في القومية الروح ألهمت التي بالمثل إيمانه فيه كرر والذي History of Biafra للأحداث التي أدت إلى الحرب الأهلية وسلوكها وتداعياتها ردود فعل قوية من مؤيدي قضية بيافران وكذلك من المعارضين لها.

حصل أتشيبى على العديد من الجوائز وأكثر من 30 درجة دكتوراه فخرية، ولكن من بين أكثر التكريمات الذي قد يكون أكثر تقديراً وأهمية لديه كان من المناضل الشهير "نيلسون مانديلا" Mandela Nelson الذي كتب "كان هناك كاتب اسمه تشينوا أتشيبى، وفي رواياته سقطت جدران السجن".

حصل على العديد من التكريمات من الحكومة النيجيرية، إلا أن أتشيبى رفض جائزة "قائد الجمهورية الفيدرالية" في عام 2004، بسبب إحباطه من الوضع السياسي في بلاده.



على الرغم من شهرته العالمية، لم يحصل أنشيبى على جائزة نوبل للآداب، والتي اعتبرها بعض النقاد - وخاصة النيجيريون - أنها غير عادلة. لكن كلية بارد College Bard أسست في عام 2005 مركز تشينوا أنشيبى من أجل إنشاء مشاريع ديناميكية لأكثر الموهوبين من جيل جديد من الكتاب والفنانين من أصل أفريقي.

توفي الكاتب الأفريقي العظيم - الذي يكتفى في الغرب بـ "أبو الأدب الأفريقي" بالرغم من رفضه لهذا التوصيف - في 21 مارس 2013 بعد مرض قصير في بوسطن بالولايات المتحدة. وصفته صحيفة نيويورك تايمز في نعيه بأنه واحد من الروائيين الأكثر قراءة في أفريقيا وأحد الأدباء الشاهقين في القارة. دفن في مسقط رأسه أوجيدي.

* باحث وكاتب فلسطيني مقيم في الدنمرك